

نافذة تنتظر الحياة

أقفُ على كتف تلة الجبل، ثابتًا كأني امتدادٌ للصحْر، لا بناء من صنع الإنسان. أطلّ على القرية من عليّ، محتويًا مشهدًا تتداخل فيه الحقول والبيوت والطرق الصّيقة، كأنّها خيوطُ حياةٍ نسجها الزّمن ببطءٍ وصبر. في هذا الموضع المرتفع، حيث تتجلى السّكينة ممزوجة بحركة الحياة البعيدة، وحيث تتبدّل الألوان مع تعاقب الصّوء بين الفجر والغروب، ويغدو الصّمت أحيانًا أبلغ من أيّ صوت، وأقرب إلى البوح. لم يرتبط مكاني بزمنٍ محدّد، بل علّق في زمنٍ مجرّد، تتعاش فيه الفصول بلا بداية أو نهاية، وبقيتُ شاهدًا صامتًا على اتّساع المكان وثباته... وعلى ما مضى ولم يعد.

حجارتني ليست مجرد حجرٍ جامد؛ إنّها ذاكرةٌ صلبة حفظت حرّ الصّيف، ورطوبة الشّتاء، ووقع أقدامٍ لا تُحصى. كلّ حجرٍ فيّ حمل يومًا خطوة فلاحٍ عائد من حقله، أو ظلّ امرأةٍ تحمل جزءًا من ماء، أو ضحكة طفلٍ ركض أمامي بلا خوف، غير مدركٍ أنّ الزّمن لا يمنح الأشياء براءتها مرّتين. أمّا أحشائي فكانت يومًا جزءًا من أرزةٍ عالية قاومت الرّيح سنواتٍ طويلة، فاستقرّ فيّ شيءٌ من قوتها وإصرارها، كأنّ جذورها ما زالت تمتدّ في داخلي، تمنحني صمودًا يشبه الوفاء. كلّ تفصيلٍ فيّ يحمل حكاية، وكلّ زاوية تختزن أثر يدٍ لم تعد موجودة، ودفنًا من زمنٍ لم يعد أحد يتذكّره سواي.

أتذكّر أيّامي الأولى حين بُنيتُ بعناية من يبني وطنًا صغيرًا لا يخشى عليه من الصّيباع. كان البناء ينحتني ببطء، يمرّ يده على حجري قبل أن يضعه في مكانه، كأنّه يستشيرني أو يطلب رضائي، أو كأنّه يودع فيّ جزءًا من عمره. ربّ جدرانني بطريقةٍ تجعلني قادرًا على الوقوف طويلًا، لا لأنني بيّتُ فحسب، بل لأنني أمانٌ لأيّ حياةٍ كاملة. لم يكن يشيد جدرانًا فقط، بل كان يرسم إطارًا لأحلامٍ صغيرة وكبيرة ستتشكل بين أحشائي لاحقًا. منذ تلك اللحظة، أدركت أن قدرتي أن أكون أكثر من حجارة... أن أكون ذاكرةً حيّة لعائلاتٍ تولد وتكبر وتغادر، وتترك أجزاءً منها خلفها دون أن تدري.

أول عائلةٍ سكنتني منحتني روحًا لم أعرفها من قبل. في صباحاتي الأولى معها، كانت رائحة الخبز تملأ مطبخي، وهي تمتزج برائحة الحطب، وتغمر هوائيّ بشعورٍ يشبه العودة إلى حضن أمّ غابت طويلًا. غرني امتلأت بأصوات النّهار وضحكات المساء، وصار اللّيل يهبط عليّ وأنا مطمئنٌ لأنني لست وحيدًا. الأطفال كانوا يركضون داخلي بحرارة الحياة، وخطواتهم الصّغيرة كانت توقظ فيّ إحساسًا عميقًا بأنّ وجودي ليس عابرًا. بطمأنينة العائد مهما ابتعد، تركوا ألعابهم على أرضي، علّقوا رسوماتهم على جدرانني، وكتبوا حروفهم الأولى على درجي الخشبيّ. ومع مرور السّنوات، صار كلّ خدشٍ فيه علامةً على زمنٍ جميلٍ لا يمكن استعادته، مهما اشتدّ الحنين.

كان شبّابي الأزرق أكثر تفاصيلٍ وجهي حضورًا. من خلاله راقبت الشّمس وهي تعبر السّماء، وشاهدت المازة والتّحوّلات الصغيرة التي تصنع عمر القرية. هناك، على إطلالة الوادي، امرأةٌ تلوّح لطفلها الدّاهب إلى المدرسة، وعلى حافة ساقية القرية رجلٌ يعود من الحقل مثقلًا بالتعب، يحسب غلال الموسم ورزق السّماء وعطاء الأرض، وعلى السّور المجاور يجلس شابٌ يعزف على عودته في ليالٍ هادئة، كأنّه يعزف للغيب أكثر ممّا يعزف للحاضرين.

كان ذلك الشّبّاك عينًا لا تنام، يتبدّل لونه أحيانًا مع الغبار والشّتاء، لكنّه ظلّ علامتي... وحنيني الدّائم لكلّ ما مرّ من أمامه ولم يعد.

ثمّ جاءت الحرب، لا كصرخةٍ مدوّية، بل كريحٍ عاصفةٍ لا هوادة فيها. بدأت برجفةٍ خفيفة في الأرض، ثمّ صار الرّصاص أقرب فأقرب، يصمّ الأذان ويعمي العيون، حتى بدت السّماء نفسها وكأنّها تهتّز فوقي. رأيت بيتًا قريبًا ينهار، ورأيت الغبار يغطّي القرية كأنّ العالم كلّ عاد فجأة إلى رماد. امتلأ داخلي بصمتٍ ثقيل، صمّت يشبه الغصّة العالقة في الحلق. غادرت العائلة على عجل، الأبواب مفتوحة، المصابيح مضاءة، والسّتائر تتحرّك مع الرّيح كأنّها تنادي أصحابها بنداءٍ لا يسمعه أحد. تركوا جزءًا من حياتهم فيّ، ورحلوا... والرحيل لم يكن في الحسبان.

مرّت سنوات الوحدة بطيئة وقاتلة. شعرت بثقل الزّمن وهو يستقرّ فوقى. تسلّل المطر من شقوق سقفي، واقتربت الرّطوبة من جذوري الحجرية. صرت مكاناً يمرّ به الزّمن دون أن يلمسه بشر. الأشجار تسلّقت جدارني، والعصافير أعادت ترتيب أسقفي بطريقتها، حتى بدا سقفي عشّاً كبيراً يحتضن الحياة وحده. كانت اللّياالي طويلة وباردة، والأيام متشابهة، كأنّ الزّمن عالقٌ في دائرةٍ لا نهاية لها. ومع ذلك، لم أنطفئ، بقيت داخلي حرارة الذّكريات: بقايا ضحكة، ظلّ صوت، وأثر يدٍ ما زلت أشعر بها على بابي.

وعندما عادت الابنة الصّغرى بعد انتهاء الحرب، كان حضورها أشبه باستعادة نبضة قلبٍ توقّفت طويلاً. دخلتني ببطء، بخطواتٍ حذرة، كأنّها تخشى إيقاظ ألمٍ قديم نائم في الرّوايا. تجوّلت في داخلي بصمتٍ يشبه الاحترام، كما لو أنّها تعود إلى بيتٍ يعرفها أكثر ممّا تعرف نفسها. أعادت ترتيب فوضى السنين، أزالّت الغبار، أصلحت تشقّقات الجدران، وأعادت لشبّاتي الأزرق لونه الأوّل. ومع كلّ حركة، كنت أشعر بالحياة تعود إليّ، لا دفعةً واحدة، بل على مهل... كما يعود الحنين.

ولم يمضِ وقتٌ طويل حتى صار أطفالها يملأون غرفي، يتنقلون بين أرجائي كما فعلت هي ذات يوم. عاد الصّبحيج اللّطيف، وعادت الفوضى التي تصنع المعنى، وعاد دفء العائلة الذي يعيد للحيطان روحها. تداخلت الأجيال في داخلي كما تتداخل حلقات شجرةٍ عتيقة، لا يمكن فصلها مهما حاول أحد قراءة تاريخها. صرت كتاباً مفتوحاً، كلّ صفحةٍ فيه تحمل أثر زمن، وكلّ فصلٍ يترك طفلاً جدّد ضحكته، أو خوفه، أو حلمه.

أنا البيت ذو النّافذة الرّقاء، كنت ومازلت شاهداً على حياة كاملة تتدفّق عبر الزّمن، فالأماكن التي نحبها لا تُنسى بل تسكننا حتّى إن نسيناها.

سامية مغربل

ثانوية السيّدة الأرثوذكسية